وصف بلاد زليتن
من خلال كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحَّالين المغاربة في العصر الوسيط

عبد الصمد عبد القادر عبد الصمد
عضو هيئة تدريس - جامعة وادي الشاطي - ليبيا
Abd.Ali@sebhau.edu.ly

ملخص البحث:

تُعنى هذه الورقة البحثية بوصف بلاد زليتن في العصر الوسيط من خلال كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالين المغاربة عند مرورهم بها لأداء فريضة الحج ذهابا وإيابا، وقد رأينا تقسيم هذه الورقة إلى ثلاثة مباحث: تناول **المبحث الأول**: أصل التسمية وتطورها، وسكانها منذ القدم حتى نهاية العصر الوسيط، والتغيرات الديموغرافية التي شهدتها المنطقة؛ فبلاد زليتن لم تكن شادة عن بقية المناطق شأنها شأن المناطق الليبية الأخرى ، تأثرت وأثرت في محيطها، ولم تكن منغلقة على نفسها بحكم موقعها الجغرافي وطبيعة أرضها المفتوحة على البحر والمناطق المحيطة، وسهلها الساحلي المتسع الذي يزيد عن الخمسين كيلو مترا، وخصوبة أراضيها، وتوفر المياه الجوفية، وجودة مراعيها، ومعدل معقول من سقوط الأمطار؛ فكل هذه المعطيات كانت جاذبة للعناصر الوافدة عبر العصور لاستيطانها ببلاد زليتن

أما **المبحث الثاني**: فتناولنا فيه الحالة الاقتصادية وطبيعة النشاط البشري للسكان والتبعية الادارية لبلاد زليتن في العصر الوسيط من خلال وصف الرحالين المغاربة، وأما **المبحث الثالث**: فحاولنا فيه تلخيص الحياة الثقافية والاجتماعية عن حياة الشيخ عبد السلام الاسمر، وزاويته الذي اشتهرت زليتن بها، وكيف كانت ردة فعل شيوخه، وعامة الناس من خلال ما كتبه البرموني في روضة الازهار.

وقد ترجمنا باختصار لبعض الشخصيات الواردة في هذه الورقة، وكذلك للمدن والأماكن التي ورد ذكرها، ثم ختمناها بأهم النتائج والتوصيات، وقائمة ثبت المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية : بلدة زليتن، مؤرخين، جغرافيين، عصور وسطى

المقدمــة:

بلاد زليتن بلاد ساحلية، تقع على الساحل الجنوبي لبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ورد ذكرها في كثير من كتب المؤرخين والجغرافيين والرحَّالة في العصر الوسيط سواء بالإشارة أو بالصراحة، وخصوصا عند الرحالة المغاربة المسافرين صحبة قوافل الحج التي كانت تسلك الطريق الساحلي، والمعروفة في المصادر العربية بالطريق (الجادة) عند ذهابهم وعودتهم، والتي يمكن أن نُستقى منها كثير من المعلومات عن أصل التسمية والسكان والتغيرات الديموغرافية للمنطقة شأنها شأن المناطق المجاورة، وقد حاولت في هذا البحث أن أستقي كثيرًا من المعلومات المبعثرة وألملمها لوصف هذه الرقعة الجغرافية التي أطلقتُ عليها بلاد زليتن لأنها لم تكن في العصر الوسيط بلدة أو مدينة واحدة؛ بل كانت قرى متجاورة، وأهم ما يميزها الزراعة: التي هي بداية الاستقرار والتحضُّر، وعن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بهذه البلاد، وتعتبر نهاية العصر الوسيط هي بداية التحوُّل الثقافي للمنطقة، فمن خلال تتبع مصادر ذلك العصر لم يكن بالمنطقة

أي منارات علمية أو مدارس حيث أهمل الأتراك العثمانيون التعليم في مناطق سيطرتهم، ويعد الشيخ عبد السلام بن سليم الملقب (بالأسمر) الرائد الأول في إنشاء أول زاوية بالمنطقة التي تطورت عبر العصور من زاوية إلى منارة ثم إلى جامعة في هذا الزمان، أشرت بشيء من التفصيل إلى: حياته، والظروف الاجتماعية التي أحاطت به، وتهجيره القسري منها، وكتبنا تراجم بعض من شيوخه؛ فالمقام لا يتسع في هذا البحث للغوص في مناقب الشيخ الأسمر حفاظا على التوازن المنهجي لهذا البحث.

وتأتي أهمية هذه الورقة البحثية في محاولة لسبر أغوار تاريخ هذه المنطقة الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وتهدف أيضاً لإعادة كتابة تاريخها بشكل جديد من خلال ما كتبه عنها الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الذين مروا بها شاهدوها عيانا، وقد أتبعتُ في كتابة هذه الورقة المنهج الوصفي والمقارن للوصول للغاية المنشودة، وأما عن إشكالية البحث فإن هذه الورقة تحاول هذه الورقة الإجابة على التساؤلات الآتية: ما الاسم القديم لبلاد زليتن؟ ومن أول من سكن هذه الرقعة الجغرافية؟ و كيف كان تأثير الأحداث السياسية في العهد الإسلامي على المنطقة؟ وهل تعرضت المنطقة لتغيرات ديموغرافية؟ وكيف كان تأثيرها على المنطقة؟ وكيف وصفها المؤرخين والرحالة والجغرافيين؟ وكيف كانت زليتن قبل وبعد إنشاء زاوية الأسمر؟

ورغم قلة المصادر والمراجع التي تتحدث عن هذه المنطقة، إلا أنني تمكنت بفضل الله من لملمة ما كتب عنها وتوظيفه في هذه الورقة، فإن أصبتُ فبتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وإن كان غير ذلك فمن نفسي.

المبحث الأول– زليتن: الموقع وأصل التسمية والسكان منذ القدم حتى نهاية العصر الوسيط:

زليتن أو [يزليتن]: كما ذكرها الطاهر الزاوي في معجمه، هي اسم لمدينة من مدن طرابلس الغرب، واسمها القديم سوجلين (Sugolin)، تقع شرقي طرابلس بنحو 158كم، وغربي مصراتة[*] بنحو 58كم، وكلمة (زليتن) محرَّفة عن الكلمة البربرية (يصلتن أو يصليتن) التي كانت تطلق على قبيلة من قبائل هوَّارة البرابرة الساكنة في هذه الناحية، وأبو هذه القبيلة يصلتن بن مصرا بن زاكيا بن ورسيك، وقد تناسى السكان كلمة يصلتن البربرية لثقلها، وصاروا يقولون زليتن لخفتها في النطق[1] - وكلمة يصليتن أو يزليتن في لغة زناتة تعني: البلد الجميل أو الصباح الجميل أو الوجه الجميل، أي أنها تطلق على كل شيء جميل.

وفي العصور القديمة التي سبقت مجيء قبائل البربر القادمة من فلسطين عقب مقتل ملكهم جالوت كانت المنطقة المحيطة بنهر(كينيبس[*])(وادي كعام) تسكنها قبيلة(المكاي) التي تسكن إلى الغرب من قبيلة النسامونيس بخليج السدرة (سرت)، وقد ذكر هيرودوت في كتابه الخامس أن هذه المنطقة أغرت المغامر الإغريقي (دوريوس) ابن ملك إسبارطة في

(*) – **مصراته:** أو مسراتة، واسمها القديم ثوباكتس(Tubactis)، ووردت في بعض المصادر العربية باسم(سويقة ابن مثكود)، غير أن سويقة بني مثكود تقع جنوب زليطن بوادي ماجر، واسم مسراتة نسبة إلى قبيلة مسراتة البربرية ، وهي فرع من بطون هوَّارة، وهي تقع على ساحل البحر المتوسط، إلى الشرق من طرابلس بحوالي (210كلم)، وإلى الغرب من تاورغاء بحوالي (40كلم) ، وإلى الشرق من مدينة زليتن بحوالي (58كلم) ، ينظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس [مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق]، مط: بريل - ليدن، 1863م ،ج: 1 ص: 130؛ والحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت ، ى مط: دار السراج، ط: 2، 1980م، ص: 295؛ وشلوف عبدالسلام، الأسماء القديمة للقرى والمدن الليبية، دار هانيبال للنشر والطباعة، بنغازي - ليبيا، ط:1، 2000م، ص: 105.

[1] - الزاوي ، الطاهر ، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور ، طرابلس - ليبيا ، ط: 1، 1968م، ص: 170.

(*) - يشير(هيرودوت) بأن نهر (كينيبس) يجري عبر أراضي المكايين نحو البحر في الشمال وأن هذا النهر يأتي من تل يدعى تل الحسان، وهو عبارة عن غابة كثيفة وهى على عكس بقية ليبيا التي تحدث عنها والخالية من الأشجار وتبعد هذه المنطقة عن ساحل البحر بمائتي فرسخ.

تأسيس مستوطنة عليها عندما نزل في حملة بحرية عام (520 ق.م) عند مصب هذا النهر، والتي عرفت باسم (لبدة)[**]، غير أن القرطاجيين تمكّنوا بعد ثلاث سنوات من تأسيس هذه المستعمرة من طرد هذا المغامر الإغريقي بمساعدة قبيلة المكاي، فرحل عائداً إلى شبه جزيرة (البيلوبونيز) ببلاد اليونان، ويصف ديودورس الصقلي المكايين بكثرة عددهم، وأنهم يفوقون القبائل الليبية الأخرى وتتألف قبيلتهم من عدة عشائر تشمل: (اليونيس، وسيزباتس، ومخليس أو يسيلي، وتوتامي، والكنيفي) والكنيفيون كان من بينهم جنود جيش القائد الفينيقي هنيبعل[يز].

وكان ابن عبد الحكم الذي عاش في القرن (3هـ / 9م) أول من أخبرنا عن هجرة البربر من فلسطين والشام بعد مقتل ملكهم جالوت على يد نبي الله داوود - عليه السلام[تز]، ثم نقل عنه ذات المعلومة كل الذين جاءوا من بعده مثل: المراكشي في القرن(5هـ/ 11م)[يز]، والشريف الإدريسي في القرن(6هـ/ 12م) غير أن الإدريسي كان أكثرهم تفصيلا لنسب جالوت فقال: " جالوت بن ضريس بن جانا وهو أبو زناتة المغرب وجانا هو ابن لواء بن بر بن قيس بن الياس بن مضر"[سمه]، وكذلك أورد ابن الأثير في القرن(7هـ/ 13م) القصة كاملة وذكر أن جالوت كان ملكا على العمالقة، وقد عظمت نكايتهم في بني إسرائيل حتى كادوا يُهلكونهم، وعززها بالآيات الواردة في سورة البقرة)[شمه]، وفي القرن(9هـ/ 15م) نقل لنا السيوطي، والحميري أيضا سبب هذه الهجرة فقالا: كان سبب مسير البربر إلى برقة وغيرها من بلاد المغرب أنهم كانوا بنواحي فلسطين من الشام وكان ملكهم جالوت، فلما قُتِل ملكهم تشردت القبائل التابعة للملك جالوت وهاجرت داخل مصر، ولكن المصريين لم يمكنوهم من الاستقرار في مصر، فاتجهوا غربا إلى برقة[لز]، ويعتقد أن هذه الهجرة كانت في بداية الألف الأولى قبل الميلاد" حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية، وتفرقوا فسارت زناتة ومغيلة، وهما قبيلتان من البربر، إلى الغرب فسكنوا الجبال، وسكنت لواتة أرض برقة، وتعرف قديماً بأنطابلس، وانتشروا فيها حتى بلغوا السوس، ونزلت هوَّارة مدينة لبدة، ونزلت نفوسة إلى مدينة سبرة [صبرة] التي تعرف اليوم بصبراته وجلا من كان بها من الروم لذلك قام الأفارق، وهم خدم الروم، على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم[□].

ويوضح اليعقوبي بطون البربر التي سكنت المنطقة ومن حواليها وعلاقتهم بمزاته ولواته فقال: " **وهوَّارة يزعمون أنهم من البربر القدم، وأن مزاتة ولواتة كانوا منهم فانقطعوا عنهم، وفارقوا ديارهم، وصاروا إلى أرض برقة وغيرهم**"ويضيف أيضا

[**] - **لبدة:** مدينة أسسها الفينيقيون في القرن الأول قبل الميلاد، اسمها القديم لبتس ماجنا (Leptis Magna) أي (لبدة الكبرى) تمييزا لها عن مدينة أخرى قرب قرطاجة عرفت باسم لبدة الصغرى، وتقع مدينة لبدة إلى الشرق من مدينة طرابلس بمسافة (120كلم) تقريبا ، غربي مدينة زليطن بحوالي (35 كلم)، وهي إحدى ثلاث مدن عرفت باسم (تريبولس). يُنظر : شلوف، المرجع السابق، ص: 73.

[2] - الميار، عبد الحفيظ فضيل، الحضارة الفينيقية في ليبيا، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001م، ص: 47 - 50.

[3] - ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن، فتوح مصر وأخبارها، تحق : محمد الحجيري، دار الفكر - بيروت ط:1، 1996م، ص: 118.

[4] - مجهول (كاتب مراكشي) الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م، ص: 155.

[5] - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، مج: 1، ص: 222.

[6] - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحق، أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط:1، 1978، مج: 2، ص: 428 - 429.

[7] - السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ، بيروت - لبنان، ط: 1، 2004 م)، ص:110؛ والحِميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت، مط: دار السراج، ط: 2، 1980م، ص: 441

[8] - ابن الاثير ، مصدر سابق، مج:2، ص: 248.

أن هوَّارة تزعم بأنهم قوم جاءوا من اليمن وجهلوا أنسابهم، وأما عن بطون هوَّارة فقال: **وبطون هوَّارة يتناسبون كما تتناسب العرب، فمنهم بنو اللهان، ومليلة وورسطفة فبطون اللهان: بنو درما، وبنو مرمزبان، وبنو ورفلة، وبنو مسراتة"**[8].

وفي العصر الإسلامي الأول تعد زليتن من أعمال طرابلس التي تبتدئ من تاورغاء الواقعة إلى الشرق منها بست مراحل وعندها تنقطع ديار مزاتة ويصير في ديار هوَّارة، فأول ذلك ورداسة، ثم لبدة، وافتتحها عمرو بن العاص صلحا ضمن المناطق التي مر بها سنة ثلاث وعشرين، أما أعمال برقة التي كانت تسمَّى قديما أنطابلس فتنتهي عند (تاورغاء)[9]، وفي ذلك العصر تعرضت المنطقة لتغيرات (ديموغرافية) نتيجة الهجرات التي شهدتها بلاد الشمال الإفريقي، وكان أهمها هجرة القبائل العربية بني هلال وبني سُليم في منتصف القرن (5هـ/ 11م).

ويستنتج مما ذكره ابن الأيوبي أن هذه المنطقة في القرن (6هـ/12م) تسكنها قبيلة ذبّاب العربية عند اجتياح قراقوش الأرمني - أحد قادة صلاح الدين الأيوبي - فقال: **"...وفي أول صفر سنة 573هـ (1177م) التقى قراقوش مجدداً بابن فراتكين، عند السفوح الشرقية لجبل نفوسة ثم اتجه شمالا حتى وصل إلى سويقة بني مكتود في الرابع من صفر من العام ذاته، حيث تلقاه (حميد بن جارية) أمير عرب (ذبّاب) وتحالف معه وأمده بخمسة آلاف فارس فكثر عدده، وأقام عنده عشرة أيام، ثم سارا معاً إلى مدينة زليطن، ومنها إلى مدينة (لبدة) حيث استراحا بها ثلاثة أيام، ثم رحلا إلى الجنوب الغربي حتى وصلا إلى مسلاتة**[10].

ويؤكد الإدريسي في القرن (6هـ/ 12م)، ما ذكره ابن الأيوبي من أن العرب سيطرت على السواحل بما فيها مدينة لبدة، التي يصفها بأنها كثيرة العمارات مشتملة الخيرات فتسلطت العرب عليها وعلى أرضها وأجلت أهلها إلى غيرها فلم يبق الآن منها إلا قصران كبيران وعمارهما وسكانهما قوم من هوَّارة البربر، ويحدد لنا الإدريسي بعض من المسافات بين لبدة والمناطق القريبة منها فقال: "**ومن لبدة إلى قصر بني حسن سبعة عشر ميلاً ومنه إلى مرسى باكروا ميل واحد وهو مرسى حسن محمي من الرياح، ومنه إلى قصر هاشم إلى قصر سامية اثنا عشر ميلاً، ومن قصر سامية إلى سويقة ابن مثكود اثنا عشر ميلاً، ومن السويقة إلى طرف قانان المشهور عشرون ميلاً فذلك من اطرابلس إلى طرف قانان على التخلية مائة ميل وثمانون ميلاً وعلى التقدير مائتان وعشرة أميال**" [11].

ولم تكن زليتن مدينة واحدة كما يعتقد البعض، ولكنها كانت مجموعة من القرى الزراعية، والأسواق[12] ومن ضمنها سويقة بني مكثود التي اُختلف في تحديدها وضبطها فمنهم من قال: إنها مدينة مصراتة، فقال الطاهر الزاوي: إن اسمها(سويقة ابن مذكور)، وسمَّاها صاحب كتاب مراصد الاطلاع (سويقة ابن مكتود) وسمَّاها غيره (سويقة ابن مثكود)" وعن الموقع الذي ينطبق عليه هذا الاسم حسبما ذكر صاحب كتاب نزهة الأنظار " **أن سويقة كانت عامرة وذات أسواق كبيرة مشهورة تبعد عن لبدة إلى جهة الشرق بنحو ثلاثين ميلا " ويقول الزاوي: إن هذا الوصف ينطبق على تلك الأبنية التي**

---

[8] - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، كتاب البلدان، المطبعة الحجرية: بريل، ليدن - ألمانيا، 1860م، ص: 135.

[9] - المصدر السابق، ص: 135

[10] - الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه، (مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحق: حسن حبشي، طبع ونشر دار الكتب، ط: الأولى، القاهرة - 1968م مصر) ص: 34.

[11] - الإدريسي، نزهة... مصدر سابق، ص: 308.

[12] - ينظر: الزبادي، ليبيا في مخطوطات الرحَّالين المغاربة ، ص. 35 - 36).

لازالت آثارها بوادي ماجر جنوب مدينة زليطن، وبها بقايا قصر عظيم يعرف بقصر السوق وحوله آثار كثيرة على هيئة حوانيت[14].

المبحث الثاني - أثر الحالة السياسية على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد زليتن في العصر الوسيط:

يمكن القول بأن الإحداث السياسية التي شهدتها المنطقة منذ الطلائع الأولى للفتح العربي الإسلامي كان لها تأثيرٌ كبيرٌ على النسيج الاجتماعي، ولم يذكر لنا المؤرخون شيئا عن أي معارك في المنطقة أثناء تحرُّك جيش عمرو بن العاص نحو طرابلس، مما يدل أن المنطقة لم تبدِ أية مقاومة للجيش العربي، ولا حتى أثناء صراع المسلمين مع البربر والروم أو صراعهم مع الكاهنة وكسيلة، فكانت المنطقة مفتوحة أمام تقدُّم القوات الإسلامية، أو حتى وقت انسحابها.

ولكن بعد سقوط الدولة الأموية أصبح هنالك فراغا سياسيا لأن العباسيين انشغلوا في بداية أمرهم بالمشرق، ولم يولوا اهتماما بالمغرب والأندلس، فاختل الأمن وشهدت المنطقة الواقعة بين سرت والقيروان في نهاية النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حروبا طاحنة بين الجيش العباسي وبين الدولة الإباضية الوليدة بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ فلما شعر المنصور بخطورة الموقف قام بعزل ابن الأشعث عن ولاية مصر، وعينه أميرا على أفريقية، وقائدا للجيش الذي سيتوجه لقتال أبي الخطاب ووجه معه الأغلب بن سالم التميمي - جد الأغالبة الذين أسسوا إمارتهم في تونس - وخرج ابن الأشعث من مصر سنة 43هـ (663 م)، في جيش كان قوامه خمسين ألفاً، ولما بلغ أبو الخطاب مسيره جمع له جيشاً كبيراً، فخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه، فاضطر ابن الأشعث لاستعمال الحيلة، ومما ساعد ابن الأشعث في التغلُّب على أبي الخطاب وقتله؛ تنازع زناتة وهوَّارة بسبب قتيل من زناتة، فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إليهم، ففارقه جماعة منهم[15]، فتمكَّن ابن الأشعث من هزيمة أبي الخطاب وقتله وقتل أغلب جنده في معركة فاصلة، واختلفت المصادر في تحديد مكانها، فذكر صاحب كتاب الاستقصاء أنها قرب سرت[16]، وذكر الشمّاخي أنها قرب تاورغاء[17]، أما ابن الخياط العصفري فذكر أنها قرب لبدة سنة 143هـ (760م)[18]، وأما عن تاريخها فتجمع أغلب المصادر على أنها كانت في سنة 144هـ (761م).

وبعد القضاء علي الوجود الإباضي في المنطقة، سيطر العباسيون على المنطقة الممتدة من برقة إلى القيروان بعد ثلاث معارك عنيفة هُزِم العباسيون في المعركتين الأولى والثانية: فكانت الأولى بقيادة (العوام بن عبد العزيز البجلي) وهُزمت في سرت سنة 142هـ (759م)[19]، وأما الثانية فكانت في العام نفسه بقيادة(أبي الأحوص عمر بن الأحوص)، وهُزِمت هي الأخرى في مغمداس غربي سرت[20] وانتصروا في الثالثة بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي سنة 144هـ (761م)، وتمت مطاردة

---

[14] - الزاوي ، الطاهر أحمد، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، ط: 4، 2004م، ص: 252.

[15] - ابن الأثير، الكامل في التاريخ.. مصدر سابق،ج:4، ص: 504؛ والناصري، (السلاوي)أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء - المغرب، 1954م، ج: 1، ص: 128؛ وابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحق، ومراجعة: ج.س. كولان، و إ.ليفيبروفنسال، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، ط: 3، 1983م، ج:1 ، ص: 72.

[16] - الناصري ، ص: 127.

[17] - الشماخي، أبو العباس أحمد الشماخي، كتاب السير، تحق: محمد حسن، تونس، منشورات كلية العلوم الإنسانية، 1995، ص34؛ ودبوز، محمد علي، تاريخ المغرب **الكبير، دار إحياء الكتب العربية ، ط: 1، 1963م** ، ج:3، ص: 19.

[18] - ابن خياط، خليفة، تاريخ بن الخياط... المصدر السابق، ص: 420.

[19] - دبوز، محمد علي، تاريخ المغرب الكبير ،مط: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - مصر، ط: 1، 1963م ، ج:3، ص: 8.

[20] - يُنظر: ابن الأثير، الكامل ...،ج:4، ص: 503؛ والناصري، المصدر السابق، ج: 1، ص: 127؛ ابن عذاري، البيان ... مصدر سابق، ج:1، ص: 72.

فلول الأباضية والقضاء عليهم في المنطقة الممتدة من الساحل حتى ودان، وتاقرفت، وزلة، وزويلة جنوبا، وقُتِل آخر قادتهم وإمامهم عبد الله بن حيان الإباضي على يد إسماعيل بن عكرمة الخزاعي - ابن عم محمد بن الأشعث[□ بر].

وبعد نجاح ابن الأشعث في القضاء على دويلة أبي الخطاب الناشئة سنة 144هـ (761م) استمر يحكم المنطقة الممتدة بين برقة حتى القيروان إلى سنة 148هـ(765م)، حيث ثار عليه الجند واستبدلوه بعيسى بن موسى الخرساني أحد قواده، غير أن الخليفة العباسي لم يقرهم على ذلك، واستبدله بأغلب التميمي، وقد شهدت المنطقة في عهده صراعات بين الأباضية والسنة الموالين للسلطة العباسية حتى أصبح الصراع سنيًّا - أباضيًّا - صفريّا[بر بر].

غير أنه بعد مضي أكثر من قرن على الفتح العربي يمكن القول بأن الثورات البربرية قد أُخمدت نتيجة لقوة الأغالبة وسياسة الاحترام للأباضيين، مما هيأ لأفريقية فترة من الهدوء والاطمئنان[تر بر].

وبعد تأسيس إبراهيم بن الأغلب إمارته في سنة 174ه (790م) كان الأغالبة التابعين اسميا للخلافة العباسية، فأصبح إقليم طرابلس والجبل تابعين اسميا لهم، ولكن ذلك لم يستمر طويلا، ففي سنة 196هـ (811م) ثارت قبائل هوَّارة على حاكم طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب وهزموه في معركة طاحنة جرت أحداثها في سهل الجفارة، فانسحب إلى مدينة طرابلس، ولاحقوه واستولوا على المدينة ونهبوها، ثم استطاع ابن الأغلب جمع صفوفه وطردهم من طرابلس وأعاد بناء سورها، وبعد وفاة إبراهيم بن الأغلب انحسر حكمهم في هذا الإقليم وأصبح لا يتجاوز مسافة قصيرة في القرى الواقعة شرق طرابلس، أما المدن والقرى البعيدة الواقعة للشرق منها حتى حدود برقة فعاشت هوَّارة فيها مستقلَّة، ويؤكد روسي أن حكم الأغالبة لم يصل إلى لبدة[بر بر].

وفي سنة 265هـ (878م) جرت بالمنطقة أحداث الصراع المسلح بين العباس بن أحمد بن طولون، وبين والي طرابلس من قبل الأغالبة محمد بن قرهب وتحديدا بوادي (ورداسة) قرب لبدة، وانهزم فيها ابن قرهب وانسحب إلى طرابلس، بعدها استنجد الأغالبة بالياس بن منصور الإباضي حاكم جبل نفوسة التابع للرستميين في تاهرت، فأمدهم باثني عشرة ألفا من الرجال، وتواجه الطرفان من جديد، فانهزم ابن طولون وانسحب إلى برقة[سه بر].

وفي نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي استطاع العُبيديون (الفاطميون) إزاحة كل الدويلات الحاكمة في الشمال الأفريقي (الادارسة – المدراريون– الرستميون - الاغالبة)، وأن يؤسسوا لحكم شيعي إسماعيلي، واستمر الحال حتى رحيل العُبيديين إلى مصر **سنة 362هـ (972م)**، فتغير الوضع السياسي في المنطقة خصوصا بعد الجفوة التي حصلت بينهم وبين نوابهم بني زيري الصنهاجيين، وبني خزرون الزناتيين، عندها سمح العُبيديون لبني هلال وبني سليم باجتياز النيل غربا، وشجعوهم بالسير إلى برقة وافريقية للتخلص منهم في مصر، ولمعاقبة الصنهاجيين المنشقين عنهم سنة 441هـ (1049 - 1050م)، ومن هنا بدأ التغير الديموغرافي والثقافي في الشمال الأفريقي، فجرى بالتدريج تعريب المنطقة بشريا، وثقافيا أصبح اللسان العربي هو الغالب، ومن أهم ملامح هذه الهجرة: انقرض المذهب الشيعي الإسماعيلي، وحل محله المذهب المالكي منذ انشقاق بني زيري وبني خزرون، وانحسر المذهب الإباضي بعد دخول القبائل العربية المهاجرة في جبل نفوسة.

---

[21] - ابن عذاري، البيان المغرب ... المصدر نفسه، ج: 1، ص: 73.

[22] - روسي، إتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، تر: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط:2، 1991م، ص: 75.

[23] - المرجع السابق، ص: 77.

[24] - المرجع نفسه، ص: 80 - 82.

[25] - المرجع نفسه، ص: 83.

ويمكن القول بأنه منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بدأ التمازج الاجتماعي (العربي/ البربري) تدريجيًّا بالانصهار، وتخلت هوَّارة عن المذهب الإباضي وتحولت إلى المذهب المالكي السني وبمرور الوقت اندثرت لغتها لتصبح اللغة العربية - لغة القرآن الكريم- هي السائدة ، واكتسب العرب أيضا كثيرًا من العادات الهوّارية؛ ولم يبق العرب أقحاحا، ولا هوَّارة كذلك(شه بر) - وهذه سنة الله في خلقه؛ فكلنا لآدم وآدم من تراب.

أما عن النشاط الاقتصادي، ففرض النشاط الزراعي نفسه على السكان بحكم خصوبة الأرض وطبيعتها، إلى جانب النشاط الرعوي والتجاري، ويُستنبط ما ذكره الشريف الإدريسي عن بعض الأحوال الاقتصادية خصوصا أسواق سويقة ابن مثكود وسكانها في عصره فقال:"... **ويسكن حولها، وبها قبائل من هوَّارة برابر(*) تحت طاعة العرب وبها سوق مشهودة وهي قصور كثيرة وأهلها يحرثون الشعير على السقي والعرب يخزنون بها طعامهم**"(لم بر).

وفي العصر الإسلامي، ونتيجة لازدهار تجارة القوافل؛ نمت وتطورت كثير من الواحات، وأصبحت مراكز تجارية مهمة، ويعتبر ظهور الإبل على نطاق واسع في ذلك العصر، العامل الأساسي في ازدهار تجارة القوافل الصحراوية، وكثيراً ما كانت القوافل التجارية تغيِّر طرقها، ومراكز تبادل بضائعها، أمام ما يصادفها من عقبات، فهذه طرابلس قد أتى إليها ما كان يصل إلى لبدة، وصبراتة، بعد الفتح الإسلامي، ومدينة طرابلس نفسها قد تعرضت لمثل هذا الحال عقب الاحتلال الأسباني، وفرسان مالطا (1510 -1551م)، فانتقل النشاط التجاري شرقاً إلى مدينة مصراتة(□ بر).

المبحث الثالث – بلاد زليتن كما وصفها الرحَّالين المغاربة:

سنتناول في هذا المبحث وصف بلاد زليتن بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري(17 - 18م) كما ذُكرت في كتابات الرحَّالين المغاربة، وكان من بينهم أبو سالم العياشي(*)الذي قام بالعديد من الرحلات للحج فبعد رحلته الأولى والثانية كتب رسالة لتلميذه وصفيه أحمد بن سعيد المجيلدي وهو في طريقه للحج سنة 1065هـ (1658م) بعنوان: (التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز)، فقال له فيها: " فإذا خرجتم من طرابلس نزلتم تاجوراء ثم وادي السيد[المسيد] أو قربه ثم الينوت ثم النكازة أو بلاد ساحل حامد، فإذا وصلتم إليها فانظر مِنْ أهل البلد مَنْ يدلك على ضريح سيدي مفتاح(**) فزره فله بركة عظيمة ومن هناك لزليتن فزر سيدي عبد السلام الأسمر(□ بر***)"(لح تر)، ويستنتج من ذلك أن الحجاج المغاربة الذين كانوا يسلكون الطريق الساحلي يهتمون بزيارة الأولياء والأضرحة للتبرك بهم، وهذا سلوك المتصوفة.

---

[26] - روسي، إتوري المرجع نفسه، ص: 93.

(*) وهوَّارة يزعمون أنهم من البربر القدم، وأن مزاتة ولواتة كانوا منهم فانقطعوا عنهم، وفارقوا ديارهم، وصاروا إلى أرض برقة وغيرهم. وتزعم هوَّارة أنهم قوم من اليمن، جهلوا أنسابهم. وبطون هوَّارة يتناسبون كما تتناسب العرب، فمنهم بنو اللهان، ومليلة وورسطفة. فبطون اللهان بنو درما، وبنو مرمزبان، وبنو ورفلة، وبنو مسراتة، ومنازل هوَّارة من آخر عمل سرت إلى أطرابلس. ينظر: اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص: 135.

[27] - الإدريسي، مصدر سابق ص: 308.

[28] - بعيو، مصطفى عبد الله، ،(دراسات في التاريخ اللوبي، مط: عابدين - الإسكندرية، 1953م ، ص : 205.

(*) - **العياشي:**هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي،(1037 - 1090 هـ/ 1627 - 1679 م) من أهل فاس،نسبته إلى آية عياش (قبيلة من البربر تتاخم أرضها الصحراء، من أحواز سجلماسة) قام برحلة دونها في كتابه " الرحلة العياشية " في مجلدين، سماها " ماء الموائد " وكذلك رحلته الصغرى المسماة (التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز). ينظر: الأعلام للزركلي، ج: 4، ص، 129.

(**) - **سيدي مفتاح:** لا تضيف التراجم الأخرى شيئا عما ذكره العياشي ومن بعده ابن ناصر إلا كونه كان يلقب بأبي حسانة ينظر : الأنصاري المنهل العذب ، ص: 233.

(***) - **عبد السلام الأسمر:**هو عبد السلام بن سليم بن محمد السعيدي المغربي المخزومي القرشي، ويذكر البرموني في كتابه أن نسب الشيخ يرجع الى الحاج عبدالله الشهير بنبيل المقبور بمكة ذي السعيدي المخزومي ونبيل مع أولاد سعيد وتناسلت منه الفروع وهو مولى حلفة فيهم ولذلك يقولون ذو سعيد لأنه العادة عند العرب

ويصف لنا في الرحلة الثانية سنة 1068هـ (1658م) البلدة، وعين كعام الواقعة إلى الغرب منها، وكذلك الزاوية الأسمرية، وبعض أتباعه مثل: أحمد بن عروس [****] نزيل تونس - غير أن صاحب الرحلة القادرية يخالفهم هذا الرأي - ويذكر أن الأسمري يغلب عليه الجدب في أول أمره وآخره وهو رجل من أهل المائة العاشرة كثير الكرامات، فقال: **"... ثم ارتحلنا من ساحل الأحامد، ومررنا بوادي تارغلات، وفيه سانية فيها قنوات تحمل الماء الى المدينة المذكورة من عين يقال لها عين كعان [كعام]، وفيها صنعة عجيبة وابنية غريبة... ثم نزلنا بلدة زليتن، وهي مثل التي قبلها في النخيل والسواني، إلا أنها أصغر فيما يظهر، وكان نزولنا خارج زاوية الولي الصالح الشهير التصرف الغني شهرته عن التعريف سيدي عبد السلام الأسمر"**[تر].

وذكرها أيضا في عودته من الحج فقال: " **وكان ارتحالنا من سيدي أحمد الزروق[*] يوم الأحد... وفي الغد من يوم رحيلنا مررنا بزاوية سيدي عبد السلام، ودخلنا وزرنا ضريحه - نفعنا الله به - ولقينا سيدي أحمد بو مجيب**[بر تر]**... وبتنا خارج البلد**[تر تر]".

وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري مر بها الرحَّالة القادري[**] في رحلته الثانية صحبة شيخه أبي العباس المعروفة بالرحلة القادرية والمسماة: (نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس 1100 - 1101هـ) فقال: **"... ووصلنا قبل العصر واديا يسمى**

اذا ربي معهم يقولون ذو كذا وعليه فانهم أخوة حلف لانسب .والعالم الصوفي المجدوب، ولد بزليطن سنة 880هـ ونشأ بها متتلمذا على عدة شيوخ كعبد الرحمن المسلاتي، والشيخين زروق والدوكالي وعنه أخذ التصوف وكان كثير العبادة دائم الذكر، إلا أنه سرعان سرعان مانهج سلوك الجدب بالضرب على الدفوف والشطح والإنشاد، جاعلا مختلف الشيوخ ينكرون عليه ذلك، ولذلك نفاه أهل زليتن وطاردته قبيلة الأحامد فلجأ الى طرابلس التي فر منها أيضا ألى جبل غريان، حيث عظمت هناك شهرته لتعم مختلف المناطق قبل عودته مظفرا إلى زليطن، وبها توفي سنة 981هـ، ودفن بزاويته المعروفة بها، وتتلمذ على يده عدد كبير من العلماء والمتصوفين، وترك تآليف كثيرة خاصة في التصوف، ومن أهمها " الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية"، و"نصيحة المريدين في الأولياء والصالحين"، وقد انتهت أكثر مؤلفاته في فتنة الزردومي التي قتل فيها ابنه عمران سنة 995هـ. ينظر: كريم البرموني: "روضة الازهار" ص: 74 - 120، والطاهر الزاوي ، أعلام ليبيا، ص: 169 - 172.

[29] - عبد السلام، محمد الحراري، ليبيا عبر كتابات الرحَّالين المغاربة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي، دار القلم للنشر والطباعة والتوزيع، الرباط – المغرب، ط:3، 2008م، ص: 401.

[30] - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[****] - **أحمد بن عروس:** هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الدائم الشهير بابن عروس والملقب (بأبي الطراير) توفي سنة (868هـ/ 1464م) ودفن بتونس، كان قطب زمانه، وصاحب كرامات كثيرة، مكرما من قبل الشيخ عبد السلام الأسمر، ويقال سبب تلقبه بابن عروس لكون ابيه تزوج أمه المسماة عروس ولم يمكث معها إلا ليلة وفارقها، ولم يظهر له اثر فلقب باسم أمه، وصنف له عمر بن علي الجزائري كتاب (ابتسام العروس ووشي الطروس في مناقب قطب الأقطاب أحمد بن عروس. ينظر البرموني، روضة الأزهار، ص: 237؛ والأعلام للزركلي، ج:1، ص: 169.

[31] - العياشي، عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية 1661 - 1663م، تحق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع والاعلان، أبو ظبي – الامارات،. ط: 1، ج: 1، ص: 183 - 184.

[*] - **الشيخ أحمد الزروق:** هو أبو العباس أحمد بن محمد زروق البرنسي الفاسي، ولد بفاس سنة 846هـ كفلته جدته بعد وفاة والده وعمه وهو في السابعة من عمره، اشتغل بالعلم آخذا عن الشيوخ : كالقوري، والزرهومي بالمغرب، ثم على شيوخ آخرين كالثعالبي والمشدالي وغيرهم، وعن شيوخ المشرق كالخروبي والسنهوري والذهبي وابن عقبة الحضرمي، وأصبح شيخا كبيرا وصفه شيخ الدين اللقاني بالشهر الكامل العالم. وقد ترك عدة تآليف مختصرة مفيدة في العلوم العقلية والنقلية، قال عنه العياشي: " الشيخ المحقق العالم العلامة العارف بالله الدال على الله صاحب العلمين، ومحقق النظرين ومرتضى الفريقين ومقتدى أهل العلم الباطن وينبوع الأسرار في سائر المظاهر قطب مغربنا وإمام أمتنا "،وتوفي في شهر صفر سنة 899هـ ودفن بمصراته. ينظر :الحراري، مرجع سابق، ص: 415.

[32] - أحمد أبو مجيب : الولي الصالح نزيل زاوية عبد الكريم الأسمر توفي عام 1064هـ، العياشي، المصدر السابق، ج: 1، ص: 185

[33] - المصدر نفسه، ج:2، ص: 500.

وادي لبدة فاستقينا منه وذهبنا وبتنا بقرب زليتن، ومن الغد سرنا طول نهارنا فوصلنا عشية إلى أول قرية من قرى مسراته"[ير تر].

وذكر لنا في عودته سنة 1101هـ (1690م) وصفا لبلاد زليتن بأنها كثيرة النخل عامرة، وأنهم زاروا ضريح الشيخ الأسمر وأوضحَ نقلا عن أحفاد الشيخ الدوكالي أن الشيخ الأسمر أخذ الطريقة العروسية عن جدهم الشيخ الدوكالي دفين مسلاته، الذي أخذها بدوره عن الشيخ أحمد بن عروس دفين تونس، فقال: **" من الغد ارتحلنا ونزلنا قرب العشية على بعض السواني ثم من الغد ضحوة ومررنا ببلاد زليتن، وهي عامرة ذات نخيل كثير حيث ضريح الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر، ...، وضريح هذا الشيخ عليه قبة حسنة وهو شهير هناك مذكور معظم مزار وهو أخذ الطريقة عن سيدي الدوكالي دفين مسلاته قرب طرابلس عن سيدي أحمد بن عروسك ما قال حفدته هناك"**[سمه تر].

ومر بها أبو علي الحسن بن مسعود اليوسيي[*] في أواخر شهر شعبان سنة 1101هـ(1690م) دون أن يتوقف بها في طريق الذهاب؛ لانتشار وباء الملاريا بالمنطقة فقال: **" بتنا بساحل الأحامد، وهي أرض كثيرة النخل والبيارة وفي الغدً مررنا ضحى بماء يقال له عين كعام، وحذرونا من مائها يورث الحمى ... ووصلنا إلى الدافنية وتصل بئر قبل أن تصلها فأحمل ماء مبيتك منها ، وفي الغد صبحنا مسراته"**[شمه تر].

وفي الإياب أيضا مرت قافلتهم مسرعة، فقال: ثم بلغنا مقام الولي الصالح أحمد الزروق يوم الاثنين 15 من شهر شعبان 1102هـ (1691م)، ولم ننزل بالدار المعلومة وذهبنا إلى آخر بلاد مسراته ونزلنا لأن بها الوباء -سلمنا الله منه - " ويلاحظ مرورهم بسرعة فقد وصلوا تاجوراء في 21 من شهر شعبان من العام نفسه[لم تر].

ومر بها الهشتوكي[**] في سنة 1121هـ (1709م) في رحلته الثانية للحج المسماة (هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام)، ويبدو أنه جاءته من أحد شيوخه رسالة توصية: **"... فإذا وصلتم قرية النكازة [النقازة] أو بلاد ساحل حامد ... فأنظر من أهل البلد من يدلك على سيدي مفتاح فزره فله بركة عظيمة، ومن هناك بلد زليتن فزر سيدي عبد السلام الأسمر، ومن هناك لأول مسراته ومنه لبلاد ولي الله - تعالى - سيدي أحمد الزروق فزره"**[□ تر].

المبحث الرابع: الشيخ عبد السلام الأسمر ودوره في شهرة زليتن:

(**) - **القادري:** هو أبو العباس أحمد بن عبد القادر بن علي الحسيني، ولد بفاس سنة 1050هـ/ 1640م، تلقى تعليمه على شيوخ الزاوية الدلائية. رحل مرتين إلى الحج كانت الأولى في سنة 1083هـ، وأما الثانية فكانت سنة 1100هـ صحبة شيخه أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله معن الأندلسي، اسماها (نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس)، وأقام بمصر نحو سبع سنين. ينظر: الحراري، المرجع السابق، ص: 52

[34] - الحراري، المرجع نفسه، ص409

[35] - الحراري المرجع نفسه ، ص: 415.

(*) - **اليوسي:** هو الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (1040 - 1102 هـ/1630 - 1691م): فقيه مالكي أديب، ينعت بغزالي عصره.من بني (يوسي) عداد برابر ملوية بالمغرب الأقصى. تعلم بالزاوية الدلائية، وتنقل في الأمصار. فأخذ عن علماء سجلماسة ودرعة وسوس ومراكش ودكالة، واستقر بفاس مدرسا، واشتهر، حتى قال عنه العياشي: (من فاته الحسن البصري يصحبه، فليصحب الحسن اليوسى يكفيه) ينظر الزركلي، الأعلام، ج: 2، ص: 223.

[36] - الحراري، مرجع سابق، ص: 419.

[37] - المرجع نفسه، ص: 423 - 424.

(**) - **الهشتوكي هو:** أحمد بن محمد بن داوود التملي نسبا، الهشتوكي شهرة، ولد سنة 1057هـ/ 1647م عاش متنقلا بين حواضر المغرب طلبا للعلم، فقضى حياته بين العلم، والقضاء، والفتوى والتأليف، توفي سنة 1127هـ/ 1715م. ينظر : الحراري، مرجع سابق، ص: 56.

[38] - المرجع السابق، ص: 426.

عاش الشيخ عبد السلام الأسمر في أواخر القرن التاسع الهجري(15م) حيث ولد ببلاد زليتن ليلة اثنتي عشر من ربيع الأول سنة 880هـ (1475م)، وقد عاش قرنا كاملا من الزمان، وعاصر خلالها الاحتلال الصليبي الأسباني لمدينة طرابلس سنة 916هـ (1510م)، ودخول العثمانيين الأتراك إلى طرابلس في سنة 958هـ (1551م)، ويبدو أن هذه الأحداث جميعها قد أثرت في تكوينه الفكري العقدي، وتوفي - رحمه الله - في سنة 981هـ (1573م)، ودفن في زاويته بزليتن[39].

وتوفي والده وهو ابن سنتين، وكفله عمه أبو العباس أحمد بن محمد الفيتوري، وأشرف على تربيته خير الأشراف، ويقال إنه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ولم تسعفنا المصدر التي اطلعت عليها عمن حفظ الشيخ عليه القرآن في سنيه الأولى[40].

ومن خلال دراسة آثاره يمكن القول بأنه متصوِّف مخلص، مالكي المذهب، أشعري العقيدة، جنيدي السلوك، شاذلي الطريقة، وقد زاد عليها الدف والمزمار فأصبحت تعرف بالطريقة العروسية نسبة إلى الشيخ أحمد بن عروس، وهي طريقة متسلسلة عن الشاذلية وإلى جانب ذلك فهو عالم جليل تدل أثاره الباقية على إحاطته بالكثير من علوم عصره، ومنها: فقه المذهب المالكي، وعلوم اللغة وآدابها، ومن أهم مؤلفاته: (الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية)، و(نصيحة المريدين في الأولياء والصالحين)، وله أيضا بعض النظم الشعرية، وللأسف أتلفت الكثير من رسائله ومؤلفاته ولم يبق منها إلا الرسائل الإحدى عشر التي جمعها البرموني، ويبدو أن تراثه العلمي قد ضاع خلال فتنة الزردومي سنة 995هـ (1587م) التي أُحرقت فيها زاويته لأول مرة، وقُتل فيها ابنه عمران أيضا[41]، وما يميِّز هذا الشيخ أيضا إخلاصه في العبادة، والدعوة لاستنهاض الأمة وأفرادها بالعلم والإيمان مع التركيز على قراءة القرآن وحسن ترتيله، وتأمل معانيه، وجاء الأسمري في عصرٍ طغى فيه الجهل والأمية وتعرَّضت فيه الأمة لحملات صليبية كثيرة كل هذه الأحداث وغيرها رسمت شخصيته وسلوكه.

وكان الشيخ الأسمر يكره التمسح بأعتاب الحكام والتوسل إليهم، وكانت تلك بادية في آثاره، وكان أكثر تشدُّدا في ذلك من شيوخه ومريديه، وظل يحذِّرُ الناس منهم، وقد عانى شيخه عبد الواحد الدوكالي(*) هو الآخر من الوشاة الذين طعنوا في أفكاره وطريقته، غير أن الشيخ الدوكالي استطاع بحنكته أن يقنع والي طرابلس ويستميله إلى جانبه، ويحذِّره من صحبتهم، أما الشيخ الأسمر فلم يحاول مقابلة الوالي في طرابلس عندما كان يقيم بخلوة جامع الناقة بطرابلس، فأمر الوالي بطرده من المدينة فغادرها إلى غريان التي مكث فيها بعض الوقت ثم غادرها هي الأخرى إلى القلعة بوادي سوف الجين التي مكث فيها بضع سنين، وفي سنته الأخيرة من إقامته في القلعة تعرَّض هو الآخر للوشاية، فتوجَّه إليه الحاكم بجيش

---

[39] - الطاهر الزاوي ، أعلام ليبيا، مصدر سابق، ص: 169 - 172.

[40] - البرموني، كريم الدين، روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطار، تحق: عبد الحميد عبد السلام الهرامة، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ، ط: 1، 2009م ، ص: 217 - 218.

[41] - المصدر السابق ، ص: 52، ص: 564.

(*) - **الدوكالي:** هو عبد الواحد الدكالي: نسبة إلى دكالة منطقة بالمغرب الأقصى، ولد في أوائل القرن التاسع الهجري - ربما في مصر - وتتلمذ على عدد من الشيوخ الكبار مثل الشيخ أبو تليس القيرواني، وفتح الله أبو رأس، والشيخ أبو راوي الفحل، وعلى يده تتلمذ عدد من الأتباع على رأسهم عبد السلام الأسمر، وترجم له البرموني في روضة الأزهار فقال:" هو الولي الصالح العالم العمل، الزاهد المربي الواصل الكامل كان صاحب كرامات وإشارات، وكان دأبه التنفير من الدنيا وما فيها، مع ما عليه من الخضوع والخشوع والبكاء، وما سمعنا ولا رأينا أعطاء الشفاعة والكلمة المقبلة عند الملوك وأرباب الدولة وبغاة العرب مثلما ما أعطى الدوكالي"، وكان فقيها محافظا على السنة، لا يحب الدفوف ولا أهلها وقصته مع تلميذه عبد السلام الأسمر مشهورة إذ سجنه لما تناهى إلى سمعه طريقه في الجدب. لا نعرف عن تاريخ وفاته سوى أنه عاش مائة وثلاثين سنة، ودفن بالزعفران قرب مسلاته. ينظر: كريم البرموني: "روضة الأزهار" ص: 74 - 112، والطاهر الزاوي "أعلام ليبيا" ص: 169 - 172 ينظر: البرموني، روضة الأزهار، ص: 238 - 239؛ وحمزة أبو فارس، مجلة المخطوطات والوثائق، السنة الثالثة، العدد : الثالث، 1988م، ص: 71 - 83.

كبير للقضاء عليه وعلى أتباعه، ولكن عناية الله أنقذته منهم، وله موقف آخر مع الوالي التركي مراد آغا(**)(*) الذي قدم لمقابلته، وظل سبعة أيام مخيما قرب زاويته ولم يرض مقابلته إلا بعد تدخل ابنه عمران(بريز).

وللأسمر وأتباعه نظر في سماع الإنشاد والضرب على الدفوف، وتنقسم آراؤهم إلى ثلاث: الأول محرَّم محض: وهو الذي يقوم به الشبان ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم وتكالبهم على حب الدنيا، أما الثاني فمباح: هو لمن لا حظ له منه إلا التلذُّذ بالصوت واستدعاء السرور والفرح، وأما الثالث فمندوب: وهو لمن غلب عليه حب الله – تعالى - فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة التي تعكس الشوق إلى الله(تريز).

وأما عن شيوخه، فقد نشأ الشيخ الأسمر بداية حياته الأولى في بلد زليتن، وحفظ القرآن مبكرًا وهو ابن سبع سنين، وبعد ذلك أخذه عمه أبو العباس إلى الشيخ عبد الواحد الدوكالي بمسلاته، وبقي عنده سبع سنين في زاوية الشيخ عبد الله الدوكالي، وأخذ عنه التصوُّف إلى جانب العلوم الأخرى، ثم أجازه بعدما رأى من كراماته ما رأى فخرج الشيخ الأسمر من مسلاته، وطاف على ما يقارب من ثمانين شيخا، وجميعهم رفضوا قبوله بعد إجازة شيخه الدوكالي، وبعد ما سمعوا عن كراماته، واطلعوا على علو مقامه، ومن بين هؤلاء الشيوخ: الشيخ عبد الله العبادي، والشيخ عبد النبي بن عبد المولى(*)، والشيخ محمد بن عبد الرحمن الخطَّاب، والشيخ عبد الرحمن المسلاتي(**)(بريز).

وتتلمذ على يديه بعض الشيوخ منهم: الشيخ سالم بن طاهر(***)، والشيخ عبد الحميد العوسجي(****) الذي أخذ عنه التلقين(سه بريز)، وعاصر الشيخ الأسمر عدة شيوخ منهم: سالم الحامدي، والشيخ سعيد التطاوي، وكذا الشيخ محمد بن محمد بن ناصر الدرعي - والد صاحب الرحلة الناصرية.

(**)مراد آغا هو : أول وال عثماني على طرابلس بعد الاستيلاء عليها وطرد فرسان مالطا الصليبيين، أصبحت ليبيا ولاية عثمانية ، وعين قائد الأسطول التركي سنان باشا (مراد آغا) واليا على طرابلس وترك معه حامية صغيرة، وبدأ مراد آغا بتعمير مدينة طرابلس التي كانت خربة من جراء تدمير الأسبان وفرسان مالطا الصليبيين، وإهمالهم لها، وكذلك من جراء قصف المدافع التركية لها، واستمر حكمه للمدينة سنة وسبع أشهر ونصف (2). ومن أهم آثارة المسجد الذي بناه في تاجوراء بعد ترك منصب الوالي إلى درغوث باشا. ينظر: ابن غلبون، التذكار، ص: 162 - 163.

(*) - مراد آغا هو: أول وال عثماني على طرابلس بعد الاستيلاء عليها وطرد فرسان مالطا الصليبيين، أصبحت ليبيا ولاية عثمانية ، وعين قائد الأسطول التركي سنان باشا (مراد آغا) واليا على طرابلس وترك معه حامية صغيرة، وبدأ مراد آغا بتعمير مدينة طرابلس التي كانت خربة من جراء تدمير الأسبان وفرسان مالطا الصليبيين، وإهمالهم لها، وكذلك من جراء قصف المدافع التركية لها، واستمر حكمه للمدينة سنة وسبع أشهر ونصف، ومن أهم آثارة المسجد الذي بناه في تاجوراء بعد ترك منصب الوالي إلى درغوث باشا. ينظر: ابن غلبون، التذكار، ص: 162 - 163.

42 - البرموني: مصدر سابق، ص: 62 - 64.

43 - المصدر السابق، ص: 352.

(*) - **الشيخ عبد النبي: هو عبد** النبي بن خليفة بن حامد بن عبد الحليم بن عبد المولى الصنهاجي، من علماء طرابلس صوفي الطريقة، قال عنه البرموني : ذكره الخروبي غير مرة وأثنى عليه وكان ذا هيبة عند الأمراء يجلونه و يحترمونه، عاش في القرن التاسع الهجري/ 15م، تتلمذ على الشيخ أبي جعفر بزاوية جنزور، وأخذ عنه الطريقة ، لم نعثر له على تاريخ ولادته ولا وفاته، غير أنه دُفن إلى جانب والده بجبل ابي ماضي. ينظر: الطاهر الزاوي ، أعلام ليبيا، مصدر سابق، ص: 248.

(**) - لم أعثر له على ترجمة ، ولم يترجم له الطاهر الزاوي في كتابه أعلام ليبيا.

44 - الزاوي المصدر نفسه، ص: 221 - 222.

(***) - **الشيخ سالم بن طاهر**: ويُعرف بابن نفيسة، الأنصاري نسبا، والطرابلسي مولدا، والزليطني دارا، أخذ العلم عن الأخوين شمس الدين، والناصر اللقاني بزاوية الزروق بمصراته ، ولقي الشيخ عبد السلام الأسمر سنة 910هـ وأخذ عنه التلقين. ينظر: الطاهر الزاوي، أعلام ليبيا، ص: 167.

(****) - **الموسجي**، هو: عبد الحميد بن علي عبد الحميد العوسجي ، علَّامة صوفي ورع ، ولد ببلدة الحرشة بالزاوية الغربية في غرة شهر رجب سنة 914هـ ، وحفظ القرآن على يد والده ، واشتهر بحفظه وتجويده بالقراءات السبع، تفقه في كثير من العلوم ، قال عنه البرموني : أخذ عن والده أثني عشر علما، اجتمع بالشيخ عبد السلام الأسمر سنة 958هـ ، وأخذ عنه التلقين، وتوفي سنة 999هـ ، ودُفن في مسقط رأسه الحرشة. ينظر: الطاهر الزاوي، أعلام ليبيا، مصدر سابق، ص: 208.

45 - الزاوي ، الطاهر، أعلام ليبيا ، المرجع السابق، ص: 208

كان الشيخ الأسمر كثير العبادة دائم الذكر، إلا أنه سرعان ما انتهج سلوك الجدب بالضرب على الدفوف والشطح والإنشاد، وقد اتخذ الطريقة العروسية(*****)، مما جعل مختلف الشيوخ بما فيهم شيخه الدوكالي ينكرون عليه ذلك، وكان شيخه يعاتبه عتابا لينا، وقد أوضح الشيخ الدوكالي لطلبته ومريديه سبب إنكاره على ذلك: هو خوفه من أن يتجاسر عليها من ليس مثله وينحرف العامة والدهماء عن السنّة والجماعة(شه ير).

ولكن الشيوخ المعاصرين له خصوصا في بلاد زليتن كانوا أكثر تشدُّدا، وعاملوه بقسوة وأوغروا عليه صدور العامة، فنفوه من زليتن، فجلى الشيخ الأسمر عن زليتن إلى تونس حيث مكث فترة هناك ليعود ثانية إليها. ومع استمرار هجوم مناوئيه تكرر خروجه وعودته إلى زليطن سبع مرات إلى أنْ اعتزم مغادرتها إلى ساحل الأحامد وهناك تعرَّض أيضا إلى حقد الكثيرين ومحاولة القتل(ير)، ولكن قبيلة الأحامد هي الأخرى طاردته، فلجأ إلى طرابلس، واستقر في خلوة جامع الناقة، ولما كثر أتباعه طُرد منها بأمر الوالي، فتوجَّه منها أيضا إلى جبل غريان، التي استقر بها بعض الوقت، ثم غادرها إلى القلعة بوادي سوف الجين شرق بني وليد حيث مكث بها مثل ما أشرنا سابقا سبع سنين، وهناك عظمت شهرته لتعم مختلف المناطق، وبعد محاولة الهجوم عليه بجيش جرار يقوده وإلى طرابلس شخصيا غادر القلعة إلى تاورغا، ومنها إلى مصراتة، ليعود من جديد إلى مسقط رأسه زليتن، ويؤسس أول زاوية له بها، وتتلمذ على يده عدد كبير من العلماء والمتصوفة، وترك تآليف كثيرة خاصة في التصوُّف، من أهمها(الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية)، و(نصيحة المريدين في الأولياء والصالحين)، وقد انتهت أكثر مؤلفاته في فتنة الزردومي التي قتل فيها ابنه عمران سنة 995ه (1587م)(ير).

ووفق ما أخبر به العياشي في ماء الفوائد، أن طريقة الشيخ الأسمر لقيت نقدا قاسيا من طرف الكثير من الشيوخ فقال: **"أخبرني بعض الإخوان من أهل مسلاته أن شيخنا محمد بن ناصر لما حج سنة سبعين 1070هـ (1660م) حج معه بعض من أهل هذه الزاوية وكان يسمع بالدف على عاداتهم فبعث إليه الشيخ فقال له: إن أردت مرافقتنا فاترك هذا السماع وإلا فأعتزلنا، فاعتل بأن ذلك من عادات سلفهم، فلم يقبل منه الشيخ ذلك، ولم يزل به حتى ترك السماع"**(ير).

النتائـــــج

يُستنتجُ من هذه الدراسة أن بلاد سوجلين (Sugolin) بلاد قديمة لا يُعرف تاريخ إنشائها على وجه التحديد، وربما أطلقت (قبيلة المكاي) هذا الاسم في المكان الذي تواجدت قبل هجرة قبائل البربر من فلسطين في القرن العاشر قبل الميلاد، أما بعد هجرة قبائل البربر فتغيَّر اسمها (يصلتن أو يصليتن) وهي محرَّفة عن الكلمة البربرية التي كانت تطلق على فرع من قبائل هوَّارة نسبة إلى جد هذه القبيلة (يصلتن بن مصرا بن زاكيا بن ورسيك)، ومع مرور الوقت تناسى السكان كلمة يصلتن البربرية لثقلها، وصاروا يقولون زليتن لخفتها في النطق.

(*****) - الطريقة العروسية : نسبة لأحمد بن عروس: هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الدائم الشهير بابن عروس، كان قطب زمانه، حمل في وقته لواء أهل العرفان، ذو المآثر السنية والحقائق النورانية والاسرار القدسية، كان صاحب كرامات وتصرفات كثيرة، مكرما من قبل الشيخ عبد السلام الأسمر، ويقال سبب تلقبه بابن عروس لكون أبيه تزوج أمه المسماة عروس ولم يمكث معها إلا ساعة وفارقها، ولم يظهر له أثر فلقب باسم أمه، وتوفي سنة 868هـ، ودفن بتونس. ينظر:البرموني، روضة الأزهار، مصدر سابق، ص: 237.

[46] - المصدر نفسه 223.

[47] المرجع نفسه، ص: 352؛ ينظر : أحمد مختار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا، ص، 154 - 165.

[48] - ينظر: كريم البرموني، روضة الأزهار، ص: 74 - 112؛ والطاهر الزاوي "أعلام ليبيا" ص: 169 - 172.

[49] - الحراري، مرجع سابق ص، 352 - 353.

أُطلِق في هذا البحث لفظ بلاد زليتن، ولم يُطلق عليها مدينة؛ لأنها في عصر الدراسة كانت مجموعة من القرى الزراعية، وقد ساعد على ذلك أرضها الخصبة وقرب مياهها من سطح الأرض، واتساع سهلها ليصل إلى رواد وادي سوف الجين الشمالية، بالإضافة إلى وقوعها على الضفاف الشرقية لنهر(كينيبس) المعروف اليوم بوادي كعام.

تأسست بالقرب من المنطقة وتحديدا في جنوبها أسواق وحوانيت وفنادق في وادي ماجر أكسبها أهمية اقتصادية، وكان لوقوع بلاد زليتن بين مديني مصراتة ولبدة؛ جعلها غير ذات أهمية إدارية على الأقل في عصر الدراسة.

شهدت المنطقة أحداثا دامية منذ بداية العصر العباسي، وما بعده نتيجة للتغيرات السياسية وتعاقب الدول على المنطقة، كما شهدت تغيرات ديموغرافية في منتصف القرن الخامس الهجري تمثلت في الهجرة العربية (الهلالية والسُليمية)، التي صبغت المنطقة بالصبغة العربية، وامتزجت فيها قبائل هوَّارة مع القبائل العربية لغة ودما، ومذهبا.

وقوع زليتن على الطريق الساحلي(الجادة) التي يسلكها الحجاج المغاربة الذين كانوا يحرصون على توثيق رحلاتهم حفظ لنا الكثير من المعلومات التي يمكن أن تعين على كتابة تاريخ هذه المنطقة وغيرها.

اكتسبت زليطن أهمية ثقافية بعد عودة الشيخ عبد السلام الأسمر إليها بعد التهجير الذي طاله أكثر من مرة وللعديد من السنوات؛ ليؤسس فيها أول زاوية أصبحت مركز اشعاع ثقافي وعلمي إلى يومنا هذا؛ ليكمل ثلاثي المنارات العلمية (الدوكالية - الزروقية – الأسمرية)، فزاد ذلك من أهمية زليتن إلى جانب أهميتها الاقتصادية (التجارية والزراعية).

التوصيات :يوصي الباحث بالاتي:

1 - ضرورة توجيه طلبة قسم التاريخ بالجامعة الأسمرية لدراسة تاريخ هذه المدينة وعلاقتها بمحيطها من خلال بحوث تخرجهم .

2 - طباعة البحوث التي قدمت في هذا المؤتمر، وتوجيه طلاب الدراسات العليا لتطوير هذه البحوث.

3 - الاهتمام بالتاريخ الحضاري للمنطقة من عمارة دينية وغيرها، وثرات، والانشطة الاقتصادية.

4 - دراسة المناطق المحيطة بزليتن : كمصراتة، و لبدة، بني وليد وغيرها.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً - المصادر:

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط: 1، 1978.
- الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس لمأخوذة من كتاب نزهة المشتاق]، مط: بريل - ليدن، 1863م .
- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط:1، 2010.
- الأنصاري، أحمد النائب، المنهل العذب في أخبار طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس – ليبيا، (د.ت).
- الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه، (مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحق: حسن حبشي، طبع ونشر دار الكتب، ط: الأولى، القاهرة - مصر، 1968م.

- البرموني، كريم الدين، روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطار، تحق: عبد الحميد عبد السلام الهرامة، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ، ط: 1، 2009م .
- الحِميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت ، ى مط: دار السراج، ط: 2، 1980م.
- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحق: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والاعلان – بيروت – لبنان، ط:1، 1970.
- السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ط: 1، 2004 م.
- العباس أحمد الشماخي، كتاب السير، تحق: محمد حسن، تونس، منشورات كلية العلوم الإنسانية، 1995.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن، فتوح مصر وأخبارها، تحق : محمد الحجيري، دار الفكر – بيروت، ط:1، 1996م.
- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب،تحق: ج. س. كولان، و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت - لبنان ، ط: 3، 1983م.
- العياشي، عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية 1661 - 1663م، تحق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع والاعلان، أبو ظبي – الإمارات العربية، ط: 1،2006م.
- ابن غلبون، محمد بن خليل، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، تحق: الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، ط:1، 2004م.
- مجهول (كاتب مراكشي) الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م.
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء - المغرب، 1954م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، كتاب البلدان، المطبعة الحجرية: بريل، ليدن - ألمانيا، 1860م.

ثانيا المراجع:

- بعيو، مصطفى عبد الله ، (دراسات في التاريخ اللوبي، مط: عابدين - الإسكندرية، 1953م).
- دبوز، محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، مط: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - مصر، ط: 1، 1963م.
- روسي، إتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، تر: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط:2، 1991م.
- الزاوي، الطاهر، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس - ليبيا ، ط: 1، 1968م.
- الزاوي، الطاهر أحمد، أعلام ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان، ط:3، 2004.
- الزاوي، الطاهر أحمد، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، ط: 4، 2004م.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط: 15، 2002.
- شلوف عبد السلام، الأسماء القديمة للقرى والمدن الليبية، دار هانيبال للنشر والطباعة، بنغازي - ليبيا، ط:1، 2000م.

- عبد السلام، محمد الحراري، ليبيا عبر كتابات الرحالين المغاربة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي، دار القلم للنشر والطباعة والتوزيع، الرباط – المغرب، ط:3، 2008م.
- عمر، أحمد مختار، النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، منشورات الجامعة الليبية كلية التربية، ط: 1، 1971م.
- أبو فارس، حمزة، مجلة المخطوطات والوثائق، مركز جهاد الليبيين، س: 3، ع: 3، 1988م.
- الميار، عبد الحفيظ فضيل، الحضارة الفينيقية في ليبيا، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001م.

Description of Zliten through The Writings of Historians, Geographers, and Travelers in the Medieval Era

Abdel Samad Abdel Qader Abdel Samad.
Al Shati University
Abd.Ali@sebhau.edu.ly

Abstract :

This research paper aims to describe Zliten in the medieval era from the writings of Moroccan historians, geographers, and travellers who passed by it back and forth to perform the pilgrim "Hajj". The research paper was divided into three themes: The first theme deals with the origin and development of the name, the inhabitants from ancient times until the end of the Middle Ages, and the demographic changes that the region witnessed. Zliten was not an exception. It was similar to the rest of the Libyan regions. It was affected and influenced by its surroundings. It was not closed in on itself due to its geographical location, the nature of its land open to the sea and surrounding areas, and the vast coastal plain that exceeds fifty kilometres. The fertility of its lands, the availability of groundwater, the quality of its pastures, and a reasonable rainfall rate attracted the incoming elements through the ages to settle in Zliten. The second theme, however, deals with the economic situation, the nature of the population's human activity, and the administrative dependence of Zliten in the Middle Ages based on the description of Moroccan travellers. In the third theme, the researchers attempted to summarize the cultural and social life of Sheikh Abd al-Salam al-Asmar, his athenaeum for which Zliten was famous, and how was the reaction of his Shikhes and the public through what Al-Baramouni wrote in "Rawdat Al-Azhar". The researcher briefly wrote about the biographies of some of the personalities, places, and cities mentioned in the paper. Then he concluded it with the most important findings and recommendations and a list of references.

Keywords: Zliten town, Historians, Geographers, Medieval ages